مأساة الأديب في العراق

بقلم عبد الله نيازي

يتساءل البعض عن الادب في العراق ، اين هو ، ولماذا يسير الى الركود والانكماش وقد كان يحاول ان يشق له طريقا في الركام ؟... بل لماذا ازداد تضاؤلا خلال هذين العامين من الثورة ؟ هل كانت الاحداث اضخم من ان يعبر عنها بدراسة او تحليل ، ام ان الاديب نفسه كان ضعيفا متهالكا ليست له صفة من صفات القوة والعمق حتى ينفعل بها ويهضمها ويتمثلها في اعماقه ومن ثم يصوغها في ادب رائع وفن قوي؟؟.

ثم اين هو الاديب العراقي ، وما سر تخلفه عن ادباء العرب بصورة خاصة والعالم بصورة عامة ؟.. وما سبب هذه الانعزالية التي تكاد تكون طابعه الخاص ؟ . ولماذا ينكمش داخل نفسه هذا الانكماش الواضح وقد كان كل شيء فيه يدفعه الى العمل والنشاط ؟.. ايعود السبب في ذلك الى القلق الذي يسيطر على هذا البلد كجزء من القلق الكبير الذي يسيطر على العالم ؟ ام يعود الى فقدان الطمانينة والاستقرار وهيمنة الاضطراب على حياة الادب الفكرية والنفسية ؟ ام ان السبب يعود الى انعدام وسائل النشر وتبيس الفم على كلمات الثناء والتشجيع؟ ام ان الامر يتصل بصورة مباشرة بحياته المعاشية وشؤونه اليومية ؟.. هل ادى واحد من هذه الاسباب الى انكماش الاديب في العراق ، ام ان هذه الاسباب كلها مجتمعة جعلت منه شخصا يائسا محطما منزويا لا يثار لاقامة بناء ولا يتحرك لعمل ؟.

الواقع ان دراسة هذه الاسباب منفردة ومجتمعة تحتاج الى بحث كبير قد لا تستوعبه هذه الكلمة ، ولكنا مع ذلك سنحاول جهدنا ان نشرحها باختصار ، ونوضح للمستفسرين والمتسائلين عن الادب في العراق بعض العوامل التي كانت سببا في انعزاله وانكماشه ..

بعد الحرب

ان اي مطلع على خط سير الادب في العراق ، يعلم تماما ، انه في اعقاب الحرب العالمية الثانية ظهرت اقلام كثيرة تكتب في شتى المجالات ، في الادب ، والفن ، والفكر .. شباب كان مدفوعا بحماس كبير لانتاج ادب جديد .. كان يقرا بكثرة ويستوعب ما يقرا ، وكان التعطش الى الثقافة والتحرق الى تفهم اصول هذه النهضة الحديثة للادب والفن يدفعانه الى متابعة ما ينشر في البلاد من كتب تضم مختلف العلوم والاداب والفنون لمشاهير الكتاب العرب ، امثال طه حسين ، والمازني والزيات والعقاد والرافعي والحكيم ولطفي السيد وتيمور وغيرهم من الذين يعدون بحق بناة الادب الحديث ومؤسسيه .. ويدفعانه ايضا الى متابعة مايترجم لمشاهير الكتاب في العالم والعناية بهم واستيعاب افكارهم العميقة ، بالاضافة الى ماكانت تحمله سائر المجلات العربية ، كالرسالة والرواية والثقافة والمقتطف وابولو والكاتب المصري والكتاب وغيرهم من بحوث قيمة ، ودراسات مركزة ، ومناقشات مثمرة تدور حول طبيعة هذه النهضة الفكرية الحديثة وهذه المذاهب الادبية الجديدة التي كانت تحاول ان تؤكد وجودها بما كانت تحمله من حيوية وتدفق .. فكان الاديب في العراق يحاول من خلال المعركة التي كانت قائمة انذاك بين انصار القديم والحديث ، او بين مؤيدي ادب الشكل واللفظ ومؤيدي ادب المضمون والمحتوى ، ان يحدد هو ايضا موقفه من هذا الصراع ويؤكد وجوده كانسان له الحق في ان يعلن ما اختمر لديه من فكر وادب وفن مادامت نفسه التواقة تمور بحب التجديد والانطلاق ، واعماقه تتمزق ويسعد بهذا التمزق الروحي .. فاعلنها هو ايضا ثورة على الاساليب البالية والنصوص الجامدة والادب التقليدي البعيد عن الحياة ، وراح يجهد في بناء ادب جديد ، ادب يستمد قوته من الحياة نفسها ، من الواقع المؤلم الذي نعيشه ، من اعماق النفس القلقة والشعور الممزق ..

المعركة بين القديم والجديد

وكان من الطبيعي بعد هذه الثورة ان تنشأ بوادر معركة هنا ايضا بين الشيوخ والشباب كنتيجة حتمية ومتوقعة للتصادم الذي يقع بين الجمود والحركة .. وكان من الطبيعي ايضا ان تدور المعركة بين ادباء الشباب انفسهم ، مادام حب تاكيد الشخصية يعمل عمله في نفس كل اديب يشعر بالاصالة والاستقلال .. وكانت طبيعة الادب من حيث كونه فنا وكفى ، وواجباته من حيث كونه مرشدا وكاشفا ، مدار هذه المعركة .. فظهر من يدافع عن الالتزام في الادب والفن ويدعو له بقوة وحرارة ، وظهر من يدافع عن حرية الاديب والفنان فيما يكتب ويبدع.. فكان الفريق الاول يرى انه من الخطل ، بل من الجحود والنكران ، والاديب الفنان هو الضمير الحي لمجتمعه وواقعه ان يتعامى عن حياتنا الواقعية الغارقة في البؤس والشقاء حتى اخر درك من دركات الانحطاط ، ويتصام عن صراخ الظلم يقع في كل لحظة من لحظات الحياة على ابناء قومه ، ليتغنى بقطرات الندى تتلألأ على صفحات وردة باسمة، او ينفث الزفرات الحرى ، ويرسل الدموع الحزينة في اثر حبيبة غاضبة ، وكانه انسان من غير هذا المجتمع لايعيش واقع الناس المؤلم ، ولا يحرك شقاؤهم وبؤسهم وترا من اوتار نفسه ، ولا يثير فيه عذابهم والامهم كوامن حسه الانساني .. والاديب الحق هو من يتشرب الام شعبه الكبيرة ، ويتمثل اماله بحسه الانساني المرهف ، فيكون الاحتراق وتكون النار ، والا فانه اديب كاذب دجال بالاحرى همه ارضاء نفسه المغلقة على ذاتيته المفردة ، واتباع رغباته الخاصة ..

ولقد غالى بعضهم في الالتزام والدعوة اليه حتى كادت الدعوة نفسها، بما تحمله من سمو مقصد ونبل غاية تتحطم بين ايديهم ، لما كانوا يبدونه من تعصب لبعض الصور السطحية المهزوزة ودفاع عن بعض الافكار الفجة السيارة ، كانت كل فضيلتها انها ماخوذة من الواقع المعاش ..

اما الفريق الاخر ، انصار الحرية في الادب ، فقد كانت حجتهم تقوم على ان الوعظ ليس من واجبات الادب الاصلية ، وانه يفقد جميع خصائصه ومقوماته اذا هو فقد الحرية .. فالاديب حر فيما ينشيء ويقول ولا سلطان عليه .. كالبلبل ، ينشد متى ما وجد نفسه تدفع الى الانشاد ويصمت حين لايجد ذلك الدافع الى الغناء .. واذا لم تكن للادب من فضيلةغير فضيلة ادخال السرور الى النفس الحزينة فانها وحدها كافية لدحض كل الاراء الاخرى.. اما الالتزام عند بعض الذين كانوا يقفون موقفا وسطا فينبغي ان يكون طوعا لا اكراه فيه ولا اضطرار ، وبذلك يحتفظ الادب بعرفهم ، بميزاته الخاصة وصفاته الدالة عليه .. ولا يكون سلعة تباع او منبرا للوعظ والارشاد ، وغيرها من الحجج والاراء المستعارة من

الصراع الذي كان قائما في اواسط القرن التاسع عشر ، بين ادب الشكل وادب الـذات ..

فترة وجمـود

ومهما يكن ، فقد كانت هناك حركة قوية ، وبوادر بناء لادب حي يغذى بالعرق ويسقى بالدموع .. الا ان هذه الحركة بدأت تفتر شيئا فشيئا، وهذا النشاط بدأ يتضاءل ، وظلت الاسس التي انشئت كما هي لم يقم عليها البناء الذي كان منتظرا .. وكان الذين كانوا يعملون في تلـك الاسس قد سئموا البناء ، او انهم وجدوه اضخم واشق من ان تحتمله نفوسهم الغضة فتركوه ولما تبد معالمه بعد .. وشيئا فشيئا بدأت الاقلام تختفي ، اقلام كثيرة ، كان ينتظر منها الشيء الكثير لو انها ظلت مدفوعة بمثل ذلك النشاط والحماس .. وبدأت يد النسيان تمتد الى وجـوه كانت تقف في المقدمة من المعركة ، وانزوى ادباء او انكمشوا داخـل نفوسهم ، ثم جرفهم التيار وانغمروا في الحياة العادية الراكدة ، ولم تبق غير فئة قليلة ظلت تصارع الحياة بقوة وعنف لكي تؤكد ، بين الفتـرة الطويلة والاخرى ، وجودها المهدد بالابتلاع ، وغير فئة اخرى كانت تتخذ من الادب وسيلة لتجارة او مرتزق .. فلماذا كانت تلك الدفقة القويـة من الحركة والنشاط ، ولماذا اعقبها هذا الفتور والجمود ؟..

المعروفان المصباح الذي يصنع خصيصا لكي يضيء على القوة البطارية فقط ، يحترق اذا لامسته اولى شرارات الكهرباء .. الم تكن في نفوس ادبائنا تلك القابلية الكبيرة والحركة المستمرة للعمل فتوقفوا عند اول بناء جدي ؟ ام انهم لم يجدوا الادوات اللازمة للعمل ولم يجدوا كذلك من يعينهم في البناء فتخلوا عنه والالم العظيم يمزق قلوبهم ؟.. ام ان الاسباب التي تساءلنا عنها انفا والتي سنأتي على شرحها بصورة مختصرة هي وحدها التي يعزى اليها تخلف الادب في العراق عن مواكبة الحياة في طريقها الشاق الطويل ، واليها وحدها يعزى تحطم نفسية الاديـب، وموت الامل فيه ليعيش في دوامة من اليأس القاتل ؟..

الاستقرار الفكري والاطمئنان النفسي

فمما لاشك فيه ، ان الاستقرار الفكري والاطمئنان النفسي يكادان يكونان الدعامتين الاساسيتين للاديب المنشيء والمثقف المفكر .. فالادب ، كما هو معروف ، يقظة وانتباه قبل كل شيء وترصد مرهق لكل ما فـي حياة المجتمع من تناقض طبيعي ومفتعل ، ولا تكون مثل هذه اليقظة ، ولا يتم مثل هذا الترصد ، الا اذا كانت النفس على جانب كبير من الاستقرار، فما من ادب والفكر مشغول بأمور لاتمت اليه بصلة ، والنفس قلقـة مضطربة عن تحسس خفايا الشعور وعمق الاحاسيس .. فاكثر مايحتاجه الاديب الفنان ، هو الاستقرار في حياته النفسية والفكرية .. ومعلـوم ان غذاء الاديب الاساسي هو القراءة المستمرة .. واستيعاب الكتب الجدية وهضمها لايكون الا اذا توفر الاستقرار الفكري والنفسي للاديب. وكذلك الامر في حالة الانشاء .. فالاديب يعجز تماما عن الباس الفكرة التي تدور في رأسه ، او الخاطرة التي تمور في كيانه الثوب اللائق ، او اظهارها الى عالم الوجود ، اذا كان القلق الفكري والنفسي هو الغالب عليه ، وليس القلق الذي نعنيه هنا هو الذي يكون في الاديب نتيجـة للصراع القائم في داخله كان يوفق في ابراز الفكرة التي تدوي فـي رأسه على النحو الذي يود ، او يتحرق الى اظهار وليده تام التكويـن والخلقة ، ينبض بالحياة ويعج بالحركة .. فان مثل هذا القلق الفعـال المنتج يدفع ولا يميت .. ولكننا نعني ذلك القلق المتجمع من الخـوف .. من الغد المظلم ، من المستقبل الغامض المضطرب .. فالاديـب يعيش فكرته منذ ان تولد فيه وتظل تصطرع في اعماقه البعيدة كشيء مبهم ولكنه يحس ، غير واضح التكوين ولكنه حي يتحرك .. ويظل يرعى هـذا الوليد في اعماقه كقطعة منه .. ويظل في تغذية مستمرة له .. اعصابه وقلقه ، ودموعه .. طعامه العذب .. والجنين ينمو ويترعرع حتى تكتمل بعض جوانبه ، فيطرق عليه باب كيانه ليخرج منه .. ساعة الوضع قد حانت .. وكل الذي يطلبه في تلك الساعة العظيمة ان يكون هادئا شديد الانتباه دائم اليقظة حتى للوليد ان يخرج بحرية وسهولة ، وحتى لا يكون هناك عسر وتشنج يقضيان عليه او يعملان على تشويهه ... فان اية غفلة ، او انسراح في الفكر او النفس بعيدين عن مراقبة عمليـة الوضع كافيان ان يجعلا الاثر الوليد مضطربا واضح التشويه .. فالاستقرار والاطمئنان هما الدعامتان اللازمتان للاديب كما قلنا .. ثم يأتي دور النشر .. دور ايجاد مكان في هذا الخضم الكبير للكائن الوليد ..

قد لايكون هناك سرور يعدل السرور الذي يحسه الاديب الفنـان وهو يرى الجنين الذي كان يعذبه ويتغذى كيانه ، ويمنع عنه النوم ، ويحرمه بهجة الحياة ، خلقا سويا ، ينطق بالحياة ويفيض بالحركة .. ويمتليء زهوا اذا هو دفع به الى الوجود ككائن حي يشق طريقه فـي الحياة ..

هذا التقديم او الدفع يحتاج الى جهد اخر .. انها سلسلة من الالام متصلة الحلقات يعانيها الاديب في حياته الفكرية ، والجهد في ايجـاد مكان لهذا الكائن الوليد من اشق الامور واصعبها في مجتمعنا الـذي نعيش فيـه ..

الادب والمجتمع والمادة

المجتمع الحي .. المجتمع المدرك ، المجتمع الذي يقدر قيمة الحيـاة ويعيشها حتى نهايتها الرائعة ، يتلقف مثل هذا الكائن الحي ويحيطه بالرعاية .. ثم يأخذ في تقديمه وابراز شخصيته واظهار ملامحه كصورة ناطقة لعظمة الانسان المبدع ، ولا ينسى بعد ذلك ان يكافيء « المبدع » هذا بالثمن الذي يستحقه .. ذلك لانه يدرك ان المال هو عصب الحياة، وان ما تنشأه الاديب وابدعه لم يأت عبثا انما كلفه غاليا ، كلفه دموعه واعصابه ، كلفه مالا كثيرا اقتطعه من قوته اليومي .. من قوت اطفاله لكي يشتري كتبا واوراقا وحبرا .. لقد بذل كثيرا وعانى كثيرا فيجب ان يكافأ على الاقل بمال قد لاينفق في غير الكتب .. الطعام الاساسي لـلاديـب ..

اما هنا ، فالامر يختلف تماما .. يندفع الشاب في القراءة اندفاعا مجنونا ، يدخر مصروفه او يقتطع من لقمته لكي يشتري الكتب والمجلات .. ويمضي ساهرا ليله كله في استيعاب وهضم مايقرأ .. وينخرم الزمن وجذوة الفن المقدسة تلهب كيانه وتحرق غضارة شبابه .. وشيئا فشيئا يشعر بشيء يملأ عليه نفسه .. الجنين ينمو في اعماقه .. الكيان الحي يترعرع في داخله .. فيزداد الما وشقاء ، ويزداد اشراقا وتضحية .. ويمضي مناغيا جنينه بحنو بالغ .. خذ ماشئت من دموعي واعصابي .. تغذ بوجودي والامي .. حطم اذا شئت كياني ، فاني فقط اريدك ان تعيش ، ان تحيا .. ان ترى النور .. وتحين ساعة الطلق ، ويروح يدور كالثور الطعين باحثا عن مكان يضع فيه مولوده .. اين ؟ .. هنا ؟..اين؟ هناك ؟.. اللهم امنحني القوة والعون .. وتتم الولادة ، بسهولة او عسر، بالام عظيمة او بغير الام ، بنزف او بغير نزف فليس ذلك بالمهم .. المولود بين يديه ، وها هوذا يرتجف ويملأ المكان صراخا .. وتشرق نفسه بالسعادة العظمى .. ويتلفت حوله علّه يعثر على انسان يشاركـه هذه الفرحة الكبرى .. فيجد وياهول مايجد .. صمت هو الموت .. وسكون تنبعث من كل زاوية فيه صرخات السخرية والاستهزاء .. فيعتريه الالم العميق ، الم يمزق وجوده .. ولكنه لم يكن قد يأس بعد.. ان قوة الحياة مازالت تدفعه الى الحركة والعمل .. فيمضي حامـلا وليده بحذر ورقة الى بعض الصحف والمجلات ، ولكن الصمت القاتل والسخرية الرهيبة هما كل مايمضي به .. وينخزل شيء في نفسه ، وبمهانة كبرى تطل عليه لتبتلع كبرياءه كلها .. وقد يدفع لكي يتقمص دور المهرج الكبير ، فيأخذ بالدعابة للكائن الذي يكاد يتحطم بين يديه وسهام متتابعة تنغرز في اعماقه وهيئته تكاد تتخذ هيئة وحش جريح .. ولكـن

احدا لايسمع وقد يظنونه مجنونا او متصنعا الجنون فتشع ابتسامات السخرية والاستهزاء .. وحينذاك فقط يكون اليأس هو اول مايشعر به ، ياس قاتل .. يأس يجعله يشعر بغضب كبير على كل من يحمل كتابا بيده .. فيرمي بوليده اليهم وكل شيء فيه ينوح ويبكي .. خذوه وتفذوا به.. لقد يئست منه ، وانا اكرهه واريد التخلص منه ... وانذاك فقط تنفتح قلوب الشامتين..النشر مجانا ، النشر دون مقابل هو كل مايبتغيه صاحب المجلة او الجريدة هنا .. ان يملأ جيوبه ذهبا على حساب اعصاب ودموع من ابتلى بذلك اللهب المقدس .. ولكن المسرحية المفجعة لم تكن قد انتهت بعد ، انها قد تستمر حتى اخر المأساة .. فان الاديب مايكاد يجد نتاجه منشورا حتى ينسى كل شيء.. ينسى كل مالاقى من عذاب والام وتمزق .. ويشرق الامل في نفسه من جديد ، امل رائع يضم الوجود كله .. وتتكرر العملية مرة بل عشر مرات ، ولكن النشوة تكون انذاك قد فقدت معناها لديه ، ويكون الحماس قد ارتطم بالف صخرة وصخرة ، وتطامن قليلا .. المهزلة الكبرى التي يمثلها مع نفسه تتكرر في كل مرة وعلى نحو افجع وادمى .. ويمضي يساءل نفسه .. لماذا كل هذا التحرق والعذاب ، ولمن اشد من اوتار قلبي اذا كانت المخالب لاتنفك في توالي تقطيعها وتمزيقها .. وتنتصب امامه اشياء قرأها في مصادر عذابه وشقائه ، في الكتب ، فقد قيل قديما ان النبع الذي يسيل منك اولى ان تنتفع به اولا ، والا فخير لك ان تطمره .. ويتضاءل ويكون الانكماش شيئا فشيئا محطما كل شيء ..ثم تفتح الحياة له ذراعيها لتحتضنه من جديد .. الحياة التافهة .. حياة التبطل والاسترخاء والانغماس في مباهج كان يعدها رذائل .. ويصفق له المجتمع مرحبا به ومعلنا انتصاره عليه ..

مشاغل الحيـــاة

ليس انعدام الاستقرار والاطمئنان في حياة الاديب ، وعدم توفر وسائل النشر ، او تعهد ما ينتجه بالرعاية والعناية والتقدير ، السببين الرئيسيين في خمود الاديب في العراق وانكماشه على نفسه .. فهناك ايضا الحياة المعاشية .. الرزق اليومي ، العمل المرهق ..

كان لي صديق يكتب للاذاعة قصصا سهلة التركيب سطحية المعنى ، وتمثيليات خفيفة . وكنت اشعر انه يملك من الطاقات المخزونة مايستطيع معها لو انه انتفع بها وسفح من روحه ونفسه شيئا فيما يكتب ، ان يأتي بشيء جيد .. فكان يقول : وانى لي ان اكتب الشيء الذي تشده وانا ما اكاد اجلس للكتابة حتى يتشعب فكري الى نواح عدة في كل زاوية ينتصب دينار او نصف دينار .. وقد كان يعاني ، كأي فرد اخر ، ضائقة مالية وديونا كثيرة .. فكان يتخذ من الكتابة وسيلة يعتاش منها .. يقيس مايكتب بالشبر .. الشبر بكذا .. كانت الحاجة تضطره الى ان يحول دموعه وعرقه واعصابه الى دراهم يسد بها افواه الدائنين ..

ولقد ذكرنا انفا ان غذاء الاديب الاساسي هو القراءة المستمرة ولا يأتي هذا الغذاء عبثا ، او يتلقفه من الطبيعة مع الهواء ، انما يدفع ثمنه دراهم يقتطعها من قوته اليومي وقوت اطفاله .. وهذا الغذاء يحتاج الى هضم وتمثيل لا يمكن ان يتحققا الا في جو هادىء واطمئنان الى المستقبل ..والموهبة كما يقولون واحد في المائة ، والبقية كد وجهد وعرق .. فالتفرغ للادب والفن والفكر ، امر ضروري ولازم لكل من يريد ان يبدع شيئا جيدا .. ولا يكون هناك انتاج عميق والفكر موزع في مجالات شتى ليس من بينها ماله صلة به والنفس قلقة مما يأتي به الغد المظلم .. وكما ان اية مهنة اخرى غير مهنة الادب والفكر لايتم اتقانها واستيعابها والتسلط عليها الا بالتفرغ التام لها واعطائها كل وقت صاحبها وكل طاقاته وجهده وابعاد كل عمل يتنافى وطبيعة مهنته .. فكذلك مهنة الادب ، فانها تحتاج الى تفرغ تام وجهد مستمر وعذاب دائم حتى يتمكن منها صاحبها ويتسلط عليها ، والا فانها تتحطم بين يديه وتمسخ الى هواية طارئة لايعود اليها الا في اوقات فراغه ، ونادرا مايحظى بمثل هذه الاوقات ..

انه مضطر الى قتل كل تلك العوالم المشرقة التي تشع في خفايا نفسه وفكره ، ذلك لان الادب والفن لايطعمان صاحبهما في هذا البلد وقد يوديان به الى الجوع .. فلا مفر اذن من ايجاد وسيلة يعتاش منها ، فينخرط في عمل يتنافى وحياة الفكر تنافيا تاما .. عمل بعيد كل البعد عن التامل والهضم والاستيعاب وليس من سبب يربطها به او يجمعها اليه .. عمل جاف مرهق يقتل فيه احاسيسه الطيبة وامانيه الوليدة وشعوره السمح .. عمل يحجر فيه اعماقه الحساسة ويطفيء تلك الجذوة التي تتوقد فيه ، جذوة الفن المقدسة .. وها هوذا الاديب يعود الى بيته بعد ذلك العمل الشاق بساعاته الطويلة والتعب يكاد يقضي عليه والاعياء يكاد يقتله .. يجر خطواته حزينا مهموما والالم يعتصر قلبه عصرا ، فها هي ذي اشياؤه العزيزة ، اشياؤه الكبيرة ، اشياؤه التي لايعدلها بالكون كله ، تحتضر بين يديه وتموت ولا يستطيع لها شيئا .. وتتساقط الدموع صامتة في نفسه .. ليس هناك من يفهم حقيقة مايملك ، وليس هناك من يدرك عظمة مايفقد .. في كل يوم يدفن في نفسه ، صفحة من وجدانه ،فلذة من كبده ، مزعة من وجوده .. وقد يزفر في بعض الاحيان زفرة عظيمة تكون بمثابة الاحتجاج الكبير على الوجود وعلى الكون كله .. وهذا غاية مايستطيع فعله .. ان يحتج بصمت وفي داخل اعماقه فقط .. فأي شيء يستطيعه هذا الانسان بعد هذه الالام العظيمة والاجهاد الكبير لفكره وجسده .. أي شيء ؟.. اجل قد يعاوده الامل مرة واخرى ، وقد يحس برعشات الحياة تنبعث من بعض الاجنة تدغدغ كيانه ، والتي لم تمت بعد ، فما زالت بقايا طراوة من وجدان تبعث فيها القوة والحيوية .. ويمضي خفيفا الى مكان بعيد عن الناس والاشياء ، او يضع نفسه في حجرة يحكم عليه ابوابها ويغلق نوافذها .. انه يريد ان يكون خالصا لنفسه ، ينعم بمفرده بهذه الحياة التي ندب فيه ، بهذا اللهب القدسي .. فيضع الكتاب في حجره بعناية ورقة وينسى كل شيء .. او ينثر الاوراق امامه وتعتريه الغيبوبة ،ولكن الى متى يستطيع تمثيل هذه المهزلة مع نفسه.. مائة مرة .. ألفا ؟.. وبعد ، ان كل شيء يقف ضده ويعمل خلاف مايصطخب في وجدانه وفكره ..

لقد كانت هناك اياد كثيرة تتلمس طريقها في الظلام لتبني شيئا ، لتقيم بناء .. كانت صادقة وكانت نشطة ومندفعة ولكنها تيبست وهي لما تزل في نضارتها وغضارتها .. لماذا ؟.. الركض وراء اللقمة ، العمل الرتيب الشاق ، الخوف من الغد ، القلق من المستقبل المظلم .. انها الاشباح التي تطارد الاديب في حياته ..

اسباب اخـرى

وقد يتساءل بعد هذا متسائل ويقول ، ان محاولة تضخيم هذه العوائق والاسباب في تبرير انكماش الاديب في العراق وخمود الادب امر مغالى فيه ، او انها ليست الاشباب الوحيدة التي عملت على جمود الادب في العراق، ان هناك اسبابا اخرى غيرها، اسبابا لا علاقة لها بالاستقرار والتفرغ والحياة المعاشية ، فهناك مثلا الغرور الكبير الذي يرافق المتأدب في مطلع حياته الادبية ، ويكون سببا في القضاء عليه ، وهناك الازدواج في الشخصية ، ومحاولة هدم كل عمل طيب او غير طيب .. اجل ، ان هذه الامور قد برزت بشكل او باخر في مطلع حركة البناء التي اشرنا اليها انفا ، فظهر من ركبه الغرور الكبير وهو لما يبصر بعد فخيل اليه وهو في اوج نشوته ، انه قد بلغ القمة وادرك الكمال ، فراح يتيه خيلاء ويحتقر كل الاقلام التي كانت تتلمس ، مثله تماما ، طريقها في الظلام ، وكأنها كانت تنازعه العرش او تريد ان تسرق من يده الصولجان .. ولم يكن هناك عرش ولم يكن هناك صولجان .. فقد كانت محاولات لا اكثر ، محاولات اقلام راعشة لبناء شيء جديد .. وما انشيء لحد الان لايعد شيئا بالقياس الى الادب العربي الحديث ، بل العالمي .. ولكنه الغرور الكبير .. وظهرت ايضا الضحالة والسطحية .. هذه

النوازع الفردية قد توجد في حياة المجتمعات بصورة عامة كما توجد في حياة الادب في حالة التفرغ والاستقرار وليس لها علاقة بالخوف والركض وراء اللقمة .. فالاسباب الاولى هي الاصل واليها وحدها يعزى خمود الادب في العراق وانكماش الاديب على نفسه .. والاخيرة قد تكون فروعا او لاتكون .. والجشع المادي البشع الذي يسيطر على اصحاب الصحف والمجلات ، والعمل المرهق الرتيب ، والخوف من الجوع ، والقلق من المستقبل ، حالة التوتر الشديد التي تهيمن على اعصاب الاديب ، واليأس الكبير الذي يسيطر عليه ، والفزع القاتل مما يأتي به الغد .. هذه كلها ، واخرى غيرها هي التي ادت الى خمود الادب والفن والفكر في العراق ، وهي التي جعلت من الاديب العراقي شخصا منكمشا ، يائسا محطما ، لا يدافع لعمل ولا يتحرق لبناء. لقد فقد كل تلك الاشياء العظيمة التي كانت تدب في كيانه .. رآها تحتضر بين يديه وتموت امام سمع الناس وبصرهم ولا من كلمة مواساة واحدة ، ورأى ايماضات فكره الوليدة تستحيل الى رماد لانفع فيه ولا رجاء ، رماد ابيض يكاد يمزق وجود صاحبه في لحظات التذكر الصامت .. كان يأمل لتلك الايماضات الوليدة ان تتوقد وتضيء ، ان تمنح الحياة شيئا جديدا ، ان تثير ما هو مظلم ، وتحرك ما هو ساكن جامد .. ولكنها سحقت وهي في اول لمعانها .. ورأى جذوة الفن في نفسه ، تلك الجذوة المقدسة ذات اللهب الرائع ، ترمى بالف حجر وحجر .. وهو ينظر فقط ، ينظر وعالم تام التكوين يتهاوى في اعماقه ويستحيل الى انقاض .. اجل ، انه قد يعود الى ذلك الركام في الفترات البعيدة ، يبحث فيه عن شرارة لم تطفأ بعد .. ولكن مثل هذه المحاولات تكون كتلك الام التي تعود قبر وحيدها في لحظات الالم المض .. وتستقر على وجنتيه دمعة صافية كبيرة ..

الادب والثورة

وحين قامت الثورة ، كانت الاقلام تلك قد بلغت حدا من التيبس لم تستطع معه مواكبتها .. وظلت تنظر بذهول ، وتتحرق باخلاص ان تستمد بعض القوة من هذه الثورة فتعبر عنها او تحللها ، ولكن ، هيهات ، ان المخزون من طاقات الماضي لايكاد يذكر .. والاعماق الخصبة تكاد تنضب او هي على وشك النضوب ، فقد انقطع الرفد منذ امد طويل ، وكل ماظهر من تعبير عن الثورة كان سطحيا وتافها ، يمس السطح مسا خفيفا مصطنعا ولا يغوص الى الجوهر ولو بمقدار سنتيم واحد ..

انها النهاية المروعة لحياة الاديب والمفكر في العراق ، كنتيجة حتمية لذلك الصراع المر بينه وبين تلك الافات المتشابكة المتداخلة مع بعضها ولا ينتظر من اديب او مفكر او فنان ان يمضي الى اخر الشوط وهو سجين تلك القيود القاتلة ، وان الاسس الطرية ، تلك التي انشأها بدموعه واعصابه ستظل كما هي اسسا واهية غير ذات قيمة من الوجهةالموضوعية بالقياس الى الادب العربي الحديث ..

اجل ، قد تظهر في قابل الايام ، محاولات اخرى جديدة ، محاولات تشد من هذه الاسس بغية اقامة بناء عليها .. وقد تظهر اقلام جديدة اخرى ، اقلام فتية ، تحاول من جديد ان تنشيء وتبني مدفوعة بحماس الشباب وحيويته ولكنها ستتلاشى حتما، اذا لم تتحرر من الخوف ، او تأمن الغد ، او تنعم بالهدوء والاستقرار ، او تجد من يعينها ويأخذ بيدها ويمسح عن جبينها حبات العرق وغمائم الالم ، والا فان المأساة الدامية ستظل تتكرر في تشابه تام ونهاية واحدة .. مادامت كل تلك الافات والاسباب التي ذكرناها انفا هي المسيطرة على الاديب في حياته الشاقة الطويلة ..

بغداد — عبد الله نيازي

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٣٨٣٢

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : جنيهان استرلينان
او ٦ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ١٠ يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب ٤١٢٣